

## مصطلح الفضاء ، من الأصل اللغوي إلى الوضع الاصطلاحي في النقد العربي المعاصر

Mustalah alfada' , min al'asl allaghawii 'ilaa alwade alaistilahii fi alnaqd alearabii almueasir

الدكتور خالد تواتي

أستاذ محاضر قسم أ- بمعهد اللغات والآداب بالمركز الجامعي الونشريسي تسمسيلت، الجزائر

[khaledtouati@gmail.com](mailto:khaledtouati@gmail.com)

we follow the shifts of this term to settle in the literary narrative critique field, With an explanation of his concepts and his shows in the Arabic and western narratologie, and on the other hand, we refer to other terms that show the same concept that he holds.

Keyword: space, narrative space, place narrative.

## ملخص البحث

نتناول في هذا البحث أحد المصطلحات من حقل السرديات والنقد الروائي، وهو مصطلح الفضاء السردية، حيث نتبع أصل وضعه الدلالي في اللغة العربية قديماً، ومع المقارنة بأصل وضعه في اللغة الفرنسية، ومن ثم نسير كيف تحول مدوله ليصطلح عليه من أجل الإيفاء بمتطلبات التحليل السردية، مع توضيح لمفاهيمه وتمظهراته في السرديات ( la ) ( narratologie العربية والغربية، والإشارة إلى دواله الأخرى مثل المكان والحيز وغيرهما.

كلمات مفتاحية: الفضاء، الفضاء السردية، الحيز، المكان الروائي.

## ABSTRACT

In this search, we address one of the terms of the field of narratologie, Which is the term narrative space, where we follow the origin of his linguistic connotation in the ancient dictionaries of the Arabic language, Compared to the French language. And then

## 1- تمهيد:

ونحن نرمي إلى توضيح مفهوم الفضاء السردية وإشكالية المصطلحات المتداولة للتعبير عن هذا المفهوم، وكيفية تناول هذا المفهوم من قبل ثلة من النقاد والمنظرين الغربيين والعرب، ارتأينا أن نتبع منهجاً بسيطاً واضحاً بعيداً عن التعقيدات النظرية حول الماهية ودوالها، وكذا الظاهرية التي تطغى على اللغة الواصفة لمثل هذه المدلولات وكيفية تحول دوالها من اللغة العامة إلى اللغة الخاصة ومنها اللغة النقدية، سنبدأ من الوضع المعجمي وأصل الوضع اللغوي، ثم نعرض على أهمية المفهوم في الدراسات النقدية السردية وكذا تقدمات هذا المفهوم

الشعراء»، من شعر «المتوكل الليثي» (ت85هـ/704م)  
قوله: "الذين سيوفهم زرق الأسيئة والحصون فضاء" ( )

وقد أورد صاحب كتاب «المدهش» عبارة يستعمل  
فيها الكلمة تقول: " فلم يهتموا حصر الدنيا فخرجوا إلى  
فضاء العز في صحراء التقوى" ( ) ، وعثرنا على هذين البيتين  
من شعر «أبي الفتح البستي» (ت400هـ/1010م) في  
كتاب «قرى الضيف» .

"جمع الله في الأمير أبي نصر خصالاً تعلقو بها الأقدار  
راحةً ثرةً، وصدراً فضاءً      وذكاءً تبدو له  
الأسرار" ( )

والسياقات هنا من الوضوح الذي يدل على المعاني التي  
ذكرناها، بحيث تكفي بنفسها عن كل شرح أو تعقيب .

ولكن اللافت للانتباه هو عثورنا على مدلول آخر  
لكلمة «فضاء» كمصطلح يندرج ضمن فن الكتابة والإنشاء،  
ويعني البياض أو الفراغ الذي يوجد على الورق بين الكلمات،  
أو بين الفقرات، كما هو معتبر في الطباعة في عصرنا وهو  
مفهوم سنجد له اعتباره أيضاً أثناء دراستنا للفضاء الروائي،  
فيما سيأتي من مباحث.

من أمثلة ذلك ما وجدنا في كتاب «صبح الأعشى في صناعة  
الإنشاء» هذه العبارة المنسوبة إلى «ابن مقلة» (272هـ-  
328م)، فيها توجيهات إلى الكتبة يقول: "... واعتبارها أن  
تخطُّ إلى جانبها ثلاث أَلْفَاتٍ أو أربع فتجد فضاءً ما بينهما  
متساوياً" ( )، وهذه نصيحة أخرى له لأحد المنشئين

ومتطهراته، ومن ثم نتبع تتبعاً تاريخياً ووصفياً انتقال المصطلح  
من أصل وضعه اللغوي إلى الجهاز المفاهيمي ومصطلحاته،  
مع الإشارة إلى الدوال الأخرى ومدى قربها ومساجلتها للدال  
المركزي الذي نستيق ونسلم بيمنته على باقي المصطلحات  
وهو الفضاء السردي أو الفضاء الروائي.

## 2- الفضاء في المعاجم والكتب العربية:

جاء في "لسان العرب"، تحت مادة «فضا»: "فضا:  
الفضاء: المكان الواسع من الأرض، والفعل فضا يفضو فُضواً،  
فهو فاضي... وقد فضى المكان وأفضى إذا اتسع... والفضاء  
الخالى والواسع من الأرض، وفي حديث معاذ في عذاب القبر:  
ضربه بمرضاة وسَط رأسه حتى يفضي كل شيء منه، أي  
يصير فضاءً... والفضاء الساحة وما اتسع من الأرض، يقال  
أفضيت إذا خرجت إلى الفضاء" ( ) .

وهناك معاني وتعبيرات أخرى وردت في لسان  
العرب تحت مادة «فضاء»، وما يهمنا منها هنا، هي المعاني  
المرتبطة بمعنى «المكان، والتي وجدنا بأنه لا يخرج جميعها من  
دائرة معاني الاتساع والفراغ والانفلات وما إليها من نعوت  
المكان. وتجدد الإشارة هنا إلى أن صاحب «مختار الصحاح»  
لم يخرج عما دُكر هنا ( )، وكذلك «صاحب العين» ( )، وإذا  
رجعنا لأمّهات الكتب الأدبية، وجدنا استعمالاً لكلمة  
«فضاء»، لا يخرج من إطار معاني الاتساع والفراغ والانفلات،  
كما رأينا في المعاجم، ونذكر هنا على سبيل التمثيل، ومن  
غير حاجة إلى زيادة تعليق، ما وجدناه في «طبقات فحول

الحية الأخرى، وكذا الترجمة إليها من هذه اللغات، وهذا شأن اللغات الحية جميعها، رأينا أنه من الأنسب في هذا المقام أن نلقي نظرة على معاني الكلمة في اللغة الفرنسية .

من المتعارف عليه بدهاء أن مفردة « فضاء » في اللغة العربية، تقابلها مفردة «espace» في الفرنسية ولهذا الأخيرة معاني كثيرة ذكرت في قاموس ( ) «Le Robert» ، رأينا أن نترجم منها ما يأتي :

-الفضاء اسم مذكر، استعمل في الفترة بين القرنين 12 و 16 بمعنى فسحة الزمن أو فترة من الوقت.

-في اللغة الفلسفية العلمية: مكان ذهني يتميز بأطرافه الخارجية، يكون في مدى إدراكاتنا، وبالتالي فهو يحتوي على كل الأحياز المغلقة.

-الفضاء مطلقاً يبرز في ثلاث مظاهر: المرئي، الملموس، والمتحرك، وهذا يختلف بالخصوص عن الفضاء الهندسي، فهو ليس منتظم الشكل، ولا متجانساً فيزيائياً، ولا يمكن حتى القول بأنه ثلاثي الأبعاد، والفضاء مطلقه ليس إلا صورة للفضاء الهندسي، ولكنها صورة مشوهة بفعل نوع من المنظور العيني ولا يمكننا تمثل الأشياء ضمنه إلا بإخضاعها لقوانين وحيثيات هذا المنظور.

-في الطباعة: الفضاء هو الفراغ الفاصل بين السطور والكلمات والذي يرادفه لفظ البياض.

-الفضاء باعتباره ذو بعدين، وبشكل أوضح يعبر عن: مساحة ممتدة، بقعة أو مكان، أو نطاق، وتتنسب إليه

الديوانيين، قوله: "إذا بلغ إلى الدعاء ترك فضاءً و كتب أتم الله على أمير المؤمنين نعمته وهناءه( )"

وإذا رجعنا إلى كلمة «فضاء» بما تدل عليه في عصرنا، للمسنا بأنه أصبح لها تواضعاً جديداً معاصراً لم تكن له سابقة في ما قبله من العصور، والنظر هنا ليس مقصوراً على المصطلح النقدي وحسب، ولكن الفكرة مطروحة كذلك بالنسبة للاستعمال الدارج لهذه الكلمة، حيث أن معناها أصبح يدور حول ما يدل على الأحواء العالية، أو بالتحديد ما فوق الغلاف الجوي الذي يحيط بكوكب الأرض، بالإضافة إلى توسعها لتشمل معاني أخرى كالفراغ، والخواء وغيرهما.

إذن يجدر بنا هنا أن نبحث في كيفية تغير دلالة كلمة «فضاء»، أو كيفية اتساع مدلولها، ليشمل معاني مثل: مطلق المكان، أو ما يحيط بالإنسان من أرض وأشياء وغيرها، وقد ذكر «شريط أحمد شريط» بأن " الباحث المغربي الأستاذ الدكتور سعيد علوش هو أول من أدخل مصطلح الفضاء إلى المعجم العربي الحديث وذلك حسب دلالاته الجديدة، وكما أشيعت في الدراسات الغربية المعاصرة، إذ أورد جل تعاريف هذا المصطلح في معجمه: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة( )".

3- الفضاء في اللغة الفرنسية:

وبما أن كثيراً من التغيرات الدلالية التي طرأت على ألفاظ لغتنا في عصرنا هذا، مصدرها التأثير بمعاني مقابلاتها في اللغات

الحكي تعتبر حديثة العهد، ومن الجدير بالذكر أنها لم تتطور بعد لتؤلف نظرية متكاملة عن الفضاء الحكائي" ( )، ولم يظهر في حقول الدراسات الأدبية إلا حديثاً وذلك بسبب انصراف النقاد والباحثين إلى الاهتمام والتركيز على عناصر أخرى مقتصرة على الجوانب الموضوعاتية من النص السردي، وبالرغم من الأهمية البالغة لمفهوم «الفضاء» بما له من تأثير لا جدال فيه على حياة الإنسان، وبرغم بروزه بشكل ملفت وفعال في ثانيا العمل السردي، إلا أنه لم يلق الاهتمام اللائق به من قبل الدارسين والباحثين الغربيين، هذا فضلاً عن الباحثين العرب الذي بقوا عالة عليهم رداً من الزمن، ونستشهد هنا بما قاله ( ) «Goldstein» الذي يؤكد بأن: " الدراسات الأدبية فقيرة جداً فيما يخص تناول موضوع «الفضاء». " ( ) ، ويؤيده في ذلك الباحث «هنري ميتران» قائلاً: "إن «الفضاء الروائي» كان ميداناً قليل الاستكشاف والتناول من قبل الأدب منذ مدة ومن قبل علم السرد، وكذا السيميوطيقا، حيث اقتصر الجهد في السنوات الأخيرة لدراسة أعمال ودراسات حول الشخصية، ومنطق السرد والزمن، أو الوقائع ". ( ) .

ويرى الباحث «رولان بورنوف» في مقال له نشر سنة 1970 قائلاً: " إنه في الوقت الذي تعددت فيه المصنفات حول «الزمن» منذ العشرين سنة التي خلت، لا نجد مع ذلك في مجموعها دراسات تعنى بالمفهوم الذي له علاقة لصيقة به: ألا وهو الفضاء في الأدب السردي ( ) ".

الأوصاف التالية: فضاء شاغر، فضاء حر فضاء مملوء، فضاء مشغول... فضاء محدد على مساحة ما، ناحية أو جهة من الأرض، حقل أو مجال.

-الفضاء بالنظر إلى أبعاده الثلاثة: حجم معين، الفراغ داخل جسم ما.

-الفضاء: مدة من الوقت، في فضاء (بحر) ستة أشهر.

والملاحظ هنا بالمقارنة بين المدلولات الأصلية للكلمة «فضاء» في اللغة العربية، ومدلولات نظيرتها «espace» في اللغة الفرنسية، نجد أن هذه المفردة توظف في اللغة الفرنسية أيضاً بمعنى الفراغ والخواء، على غرار ما نجد في اللغة العربية، وتعبّر في الوقت نفسه عن المساحة الممتدة، كما تنزع أيضاً للدلالة على المكان صرفاً، وهذا يجعله أقرب إلى مدلولات المصطلح النقدي الذي سنتناوله في بحثنا، بينما نجد الأمر في اللغة العربية يستدعي تبريراً يسوّغ توسع معاني كلمة «فضاء»، للدلالة على مطلق المكان، وبالتالي التوسع للدلالة على المفهوم النقدي الذي سنعرض له، فيما سيأتي من المباحث.

#### 4- الفضاء في الدراسات النقدية:

مصطلح الفضاء من المفاهيم النقدية التي ما تزال تتخبط في إشكاليات عدة مردها إلى عدم اتفاق الدارسين واختلاف مواضعهم على مصطلح موحد يحمل مفاهيم محددة، ثم إن الأبحاث ذاتها " المتعلقة بدراسة الفضاء في

وشهد المفهوم تطورات جذرية في المناهج النقدية الحديثة، " ولاسيما النقد الظاهري (Phenomenological Criticism)، الذي يقوم على تحليل الوعي، وقد استبطن الأشياء فتحوّلت إلى ظواهر، وكان أبرز مطوري هذا النقد «غاستون باشلار» و«جان بيير ريشار» و«جيلبير ديوران» في النقد الفرنسي الذي سرعان ما انتشر في خريطة النقد الأدبي الحديث .

وقد أطلق «باشلار» نظريته عام 1938 في كتابه «التحليل النفسي للنار» وأتبعه بكتبه الأخرى، ومنها «شعرية المكان» (1957) الذي ترجمه «غالب هلسا» (الأردن) عن الإنجليزية عام 1980 بعنوان «جماليات المكان» وافتتحت به سلسلة كتاب «الأفلام» الصادرة عن دار الشؤون الثقافية ببغداد. " ( )، وقد "عُرف المكان وحدة أساسية من وحدات العمل الأدبي والفني في نظرية الأدب، وعدّت إحدى الوحدات التقليدية الثلاث، ولطالما كانت مثار جدل في تحقق العمل الأدبي والفني في المسرح بالدرجة الأولى، ولم يتجاوزها منظرو الأدب في العصر الحديث، بل صارت إلى ركيزة من ركائز الرؤية وجمالياتها في النظرية الأدبية الحديثة" ( ) .

ومن النقاد العرب الذين اهتموا بهذا المفهوم نذكر "سيزا القاسم، وكذلك ما قدمته «مجلة فصول»، وبعض المجلات الأخرى، حيث مهدت سبيل المعرفة النظرية والممارسات التطبيقية لنشرها لبحوث ومقالات عن «الفضاء» في الإبداع العربي وغيره، بالإضافة إلى غالب هلسا وعبد الملك مرتاض وحميد حميداني ( ) ."

حتى أن «تودوروف» لم يأتي على ذكر الفضاء عندما عدد المقاييس الثلاثة لتحليل الخطاب السردى، حين يقول: " يبدو أن اتفاقاً عاماً قد تم في التحليل السردى للوقوف على ثلاثة مقاييس: الزمن، والرؤية، والطريقة. " ( ) والأمر نفسه حدث عند الروائيين العرب الذين أهملوا لحقبة طويلة المكان وعدّوه قسماً مكماً للشخصيات والحدث، ولذلك فإن النقاد العرب بدورهم أغفلوا أهمية المكان في دراساتهم وركزوا على الجوانب الأخرى في النص الروائي، نجد هذا الحكم قد قال به عبد الله عزام، حيث ذهب إلى أنه بالرغم من "أن «المكان» قد احتلّ حيزاً كبيراً في شعرنا العربي في المقدمات الطللية، وفي وصف الطبيعة الجامدة والمتحركة، فإنه لم يحظ بدراسات هامة في أدبنا النثري، حتى جاء الاهتمام به مع التقنيات الحديثة للرواية، فبدأ يحتلّ مكاناً هاماً في السرد الروائي ( )"

وكما يبدو للباحث في اهتمامات تأسيس الإبداعية العربي، أن ظاهرة الوقوف على الطلل في الشعر الجاهلي من أبرز التجارب والنماذج الإنسانية ومن أهمها الصلة القوية التي تكونت بين الشاعر والفضاء، والذي ظل الهاجس السحري الذي يشد الإنسان إليه بمجموعة من القيم النفسية والغرائزية، إلا أنه لم يتم التنبّه إلى أهمية المكان في عالم الرواية إلا بعد مرور فترة زمنية مكنت الروائيين والنقاد من محاولة تشكيل نظرية روائية، إذ تم التعامل معه في البداية بوصفه إطاراً حاوياً لمجموعة من الأحداث، لكن بعد تراكم كتابي وجد المتعاملون معه أن ثمة عناصر غير محدودة يمكن توظيفها في المكان فالمكان فضاء وشخصية ومحور وركن أساسي في بنى الرواية الحديثة.

منافسة لمصطلح «الفضاء»، في حلبة الرواج والاستعمال لدى الباحثين والنقاد.

#### 5- المصطلحات الأخرى لمفهوم الفضاء:

ف نجد على سبيل المثال عندنا، أن «شريط أحمد شريط» يوظف مصطلح «البيئة»، ونسوق له في هذا المقام قوله: "يعد عنصر «البيئة» ركناً أساسياً في القصة، فهو الحيز الطبيعي الذي يقع فيه الحدث، وتتحرك الشخصيات في مجاله ولذلك فإن صفاته تختلف من نوع لآخر من حيث الاتساع والضيق، وذلك بحسب طاقة كل جنس وقدراته الفنية... وأهم خصائص هذا الركن (بيئة القصة القصيرة)، أن تكون البيئة مركزة قدر الإمكان، وأن يتجنب القاص تنوعها قدر استطاعته. ( )"

مع أنه (شريط محمد شريط)، يقر برواج مصطلح الفضاء قائلاً: "وإذا كانت مثل هذه المصطلحات: المكان، الحيز، الفضاء، تتردد في الدراسات والبحوث التي تناولت هذا الموضوع تنظيراً، وممارسة، فإن مصطلح «الفضاء» كان أكثرها حضوراً، وأغناها دلالة وتجربة وأعمقها بعداً( )".

أما «عبد الحميد بورايو»، فبالرغم من أنه يستعمل مصطلح «المكان» بكثرة، إلا أنه يوظف أيضاً مصطلح «الحيز المكاني»، عندما يكون في معرض التمييز بين مصطلحين: «الحيز النصي»، الذي يقصد به الصورة الشكلية التي قدمت بها الرواية للقارئ، من حيث ترتيب أقسامها، وفيما يتعلق بعنوانها وعناوين فصولها، ومضامين فاحتها...، ومصطلح «الحيز المكاني»، الذي يقصد به

في أثناء بحثنا وجدنا أن الباحثين العرب يستعملون مصطلحات مختلفة ومتعددة لمفهوم الفضاء، وليس هذا وحسب، فاختلافهم لا يقف عند حد التواضع على هذا المصطلح أو ذاك، بل يتعداه إلى الاختلاف حول المدلولات التي يحملها كل مصطلح من هذه المصطلحات، فكل باحث يوظف مصطلحه، وفق منظوره ومفهومه الخاص به، بل إن باحثين آخرين يستعملون أكثر من مصطلح، ولا يلتزمون بمصطلح واحد، ومع هذا فإن الأمر الواقع الذي فرضته بعض الأقلام الجادة في مجال البحث الأدبي جعل لمصطلح «الفضاء» رواجاً يكاد يغطي على ما سواه من المصطلحات، وليس من اليسر كما هو متداول ومتعارف عليه، أن يتفق الدارسون على تعريف دقيق لمصطلح من المصطلحات، أو كلمة من الكلمات، وبخاصة إذا تعلق الأمر بالمفاهيم الحديثة الظهور والاستعمال.

يقول «عبد الملك مرتاض»: "إن مصطلح الحيز لا يبرح غير قار، ولا مجمع عليه في الاستعمال العربي المعاصر. ( )"، و«عبد الملك مرتاض» يوظف مصطلح «الحيز» بدلاً من مصطلح «الفضاء»، وله وجهة نظر معتبرة سنتطرق إليها في مبحث آخر من هذا البحث .

ومن المصطلحات التي يوظفها الباحثون، نذكر على سبيل المثال: مصطلح الحيز، وكذا مصطلح البيئة الأدبية، والمجال، والموقع. غير أن مصطلح «المكان» يظل المصطلح الأكثر

العرب المعاصرين، في أنهم يصطنعون «الفضاء»، وفي أننا اصطنعنا «الحيز» الذي نتعصب له وننضح عنه ( ).

ولاشك أن تعبيره بصيغة الماضي «اصطنعنا»، في مقابل صيغة الحاضر «يصطنعون»، إشارة إلى أنه كان من اللائق والمفروض على غيره أن يتبعه لأنه - كما يرى - الأسبق في تناول هذا المفهوم، وبالتالي يحق له أن يضع المصطلح المناسب له، ففي كتابه « في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد »، عند تطرقه إلى مكانة «الحيز» في الدراسات الروائية العربية، جزم «عبد الملك مرتاض» قائلاً: " بأننا لم نر أحداً من كتاب العربية، ممن اشتغلوا بنقد الأدب الروائي، أو التنظير للكتابة الروائية، خصص فصلاً مستقلاً لهذا «الحيز» ( أو الفضاء بالمصطلح الشائع في النقد العربي المعاصر )، ماعدا « حميد حميداني »، الذي اختص هذه المسألة بفصل مستقل تحت عنوان « الفضاء الحكائي » ( ) " »

وبالرغم من أنه أوماً إلى سبق « حميد حميداني » في دراسة موضوع «الفضاء الروائي»، إلا أنه عارضه بشدة لاهتمامه البالغ بما يسمى «الحيز النصي» مشيراً إلى أنه (حميداني) أهمل الجوانب الأخرى، بقوله: "إن نص «لحميداني» لا يتمحض في الحقيقة للحيز الذي نريد إليه نحن، كما سلفت الإشارة إلى بعض ذلك، في هذه المقالة، التي تكتب لأول مرة في اللغة العربية عن هذا المكون السردى. ( )"

وكان قبل ذلك أورد له فقرة مطولة اقتطعها من كتابه الموسوم بـ « بنية النص السردى من منظور النقد الأدبي » مصدرّاً إليها بقوله: "غير أن الدكتور «لحميداني» اتجه بناءً على

الحيز الذي يشمل الأماكن، سواء منها المتخيل أو الفعلي الواقعي الذي له مرجعية واقعية ( )

ونجد المصطلح نفسه «الحيز المكاني»، موظفاً من قبل «أحمد طالب» في بحثه «السرد وجمالية المكان»، المنشور بمجلة «الموقف الأدبي»، حيث يعرفه بقوله: "إن الحيز المكاني هو الفضاء الذي تتحدد داخله مختلف المشاهد والصور والمناظر والدلالات والرموز، التي تشكل العمود الفقري للنص السردى، إذ يعد المشهدية الخلفية للشخصية القصصية، فهو مسرح الأحداث" ( ) ، وقد استعمل « محمد عزام » مصطلح « فضاء المكان الروائي »، وجعله عنواناً للفصل الثاني من كتابه «شعرية الخطاب السردى» ( ) .»

إن عدم اتفاق الدارسين العرب على توظيف

مصطلح واحد لمفهوم الفضاء هو من أحد مشاكل

المصطلحية الذي لازالت تتخبط فيه الدراسات الأكاديمية

العربية، وهو عائق في بعض الأحيان أمام التواصل المعرفي بين

الدارسين العرب.

#### 1-4 مصطلح الحيز:

من المعروف لدى الباحثين أن «عبد الملك مرتاض»

يتفرد باصطناع مصطلح «الحيز» بدلاً من «الفضاء»، وسط

مخالفة كم هائل من النقاد والمنظرين العرب، وقد عبر هو نفسه

بشيء من المرارة عن ذلك في تصدير دارسته عن « جمالية

الحيز في المعلقات » بقوله: "لقد خالفنا جماعة من النقاد

وحججه التي تجعله يتمسك بتوظيف مصطلح «الحيز» بدلاً من «الفضاء»، وفي الوقت نفسه لا يكلِّد يدعو إلى العزوف عن استعمال مصطلح «الفضاء»، لأنه كما قال: "قاصر بالقياس إلى الحيز، فالفضاء من الضرورة أن يكون معناه جاريًا في الخواء والفرغ، في حين أن الحيز لدينا ينصرف استعماله إلى التواء، والوزن والثقل، والحجم والشكل،" ( )...

وفي حقيقة الأمر فإن «عبد الملك مرتاض» لم يجانب الصواب، في قوله أن معنى «الفضاء» «يجري في الخواء والفرغ»، وهذا ما لمسناه بالفعل عند تطرقنا إلى المعنى اللغوي «للفضاء» في المعاجم العربية القديمة، ولكن هناك حقيقة لا يجب أن نغفلها وهي ما يسمى بالتغير الدلالي للمفردات، وهذه حقيقة تفرض نفسها على الساحة الأدبية واللغوية، فكم من كلمة فصيحة، كان مدلولها ينحى منحىً معيناً مثبتاً في المتون وأمهاث الكتب، تغير معناها وتمجَّن وأصبح لها معنى جديداً ربما يناقض معناها الأصلي، ومع ذلك نجد جارياً على الألسن مستساغاً بفعل تكراره والتبذل به، حتى يُظن كل الظن أنه معنى له جذر عميق في الأصالة والفصاحة وهو في حقيقته خلاف ذلك .

وكلمة «الفضاء» كما ذكرنا سابقاً، كان معناها مقتصرًا على وصف المكان بالاتساع، أو الفراغ والخواء، ولكن أصبح لها معنى درجاً في عصرنا يماثل معنى نظيرتها الفرنسية «espace»، والذي يدل بالإضافة إلى ذلك على المكان أو مساحة من الأرض بهذا الإطلاق، كأن يقال مثلاً: «هذه مساحة خضراء»، أو هذه «مساحة تجارية»، وغير ذلك من

قراءاته الفرنسية متجهًا يهتم بحيز الصفحة وحروفها وفراغها أو بياضها ( )، ثم قدّم آراءً مضادة تنقض وجود أهمية لما يسمى بالفضاء النصي ( ) .

ومن جهة أخرى نجد «عبد الملك مرتاض» أولى اهتماماً لهذا الجانب عند تحليله لرواية «زقاق المدق» لنجيب محفوظ، حيث أنهى هذه الدراسة بالإشارة إلى الفضاء النصي في هذه الرواية، من دون أن يسميه بأي من المسميات الموضوعية له، وقد دبج هذا المبحث بقوله: "أصبحت العناية بحجم النص المدرس، ووصف مساحته عبر صفحات الكتاب المنشور فيه، من السيميائيات المطلوب الكشف عنها، في أي دراسة حدائية ( ) ."

والحقيقة التي يمكن أن يصل إليها أي قارئ اطلع على بحث «لحميداني» هي أن هذا الأخير تطرق بكثير من الإسهاب إلى جوانب كثيرة من موضوعة الفضاء الروائي بجميع أشكاله وتمظهراته، ولو نرتضي الاحتجاج بالعملية الإحصائية، فإننا نجد بأن مبحث «الفضاء الروائي» في كتاب «لحميداني»، جاء في نطاق عشرين صفحة منها ست صفحات فقط تطرق فيها إلى مفهوم الفضاء النصي الذي رده «عبد الملك مرتاض»، الأمر الذي يبين بأن «لحميداني» لم يقتصر في مفهومه للفضاء على الفضاء النصي وحده، بل تطرق إلى عدة مباحث منه ( ) .

ولنعد إلى إشكالية المصطلح الذي اصطنعه «عبد الملك مرتاض» وفق وجهة نظره الخاصة به، التي يعرض عليها بالنواخذ، والتي لا يترك أي مناسبة إلا ويقدم مسوغاته



المكان في الرواية استخدام مصطلح الفضاء الروائي" ( )،  
وطرحوا غيره من المصطلحات، ومنها مصطلح الحيز .  
وواقع الحال يقول بأن مصطلح «الفضاء» فرض نفسه فرضاً،  
بمسوغ أو بغيره، وشاع مثلما شاع كثير من الأخطاء في  
المفردات والتراكيب اللغوية، هذا إن وافقنا مرتاضاً في مذهب  
إليه من تحطئة من يوظفون مصطلح الفضاء بدلاً من مصطلح  
الحيز، ثم إن وضع المصطلح في كثير من الأحيان، إنما هو  
مسألة ذوق ولا يمت إلى حقائق الأمور بصلة، ولا يتطلب  
مسوغات في كثير من الأحيان، وهنا قضية شائكة لا يتسع  
المجال للنظر فيها هنا.

ومما لا يجب أن نغفل ذكره هنا هو أن «عبد الملك مرتاض»،  
وُلد مصطلحات أخرى وردت لأول مرة -

بحسب ظني - في كتابه « التحليل السيميائي للخطاب  
الشعري»، مشتقة من «الحيز»، وهي « التحيز»  
و«التحيز» و«الحيزة»، ويقول علاوة هلى ذلك بأن لا أحد  
من المتعاملين مع النصوص الأدبية من العرب المعاصرين،  
بمضي على نحوه في التعامل مع «الحيز» فتعامله مع هذا  
المفهوم "لا يرمي بالضرورة إلى تسليط الضوء على المكان من  
حيث هو مفهوم تقليدي، ولكنه يشرب إلى منحه شحنة  
جديدة من الدلالة السيميائية بتوسعة مفهومه إلى حيز من  
الأحياز، كالخطوط والأبعاد والأحجام والأوزان، وكل ما يتخذ  
شكلاً ما في حيز ما، كالمطر والسحاب والماء وهلم جراً. " ( )  
)، والغاية من استعمال مصطلح «التحيز»، حسب مفهومه،

التعابير التي دخلت على اللغة العربية في عصرنا، تأثراً باللغات  
الحية الأخرى، هذا بالإضافة إلى المعنى الشائع الذي يدل على  
الأجواء العالية ما فوق الغلاف الجوي لكوكب الأرض، في  
حين أن دلالاته على الفراغ والحواء يندر استعمالها في الكتابات  
المعاصرة.

ومن جهة أخرى، فلو نقبنا عن البديل الذي أطلقه  
«عبد الملك مرتاض» لوجدنا بأن أمهات المعاجم القديمة لا  
يرد فيها «الحيز» بمعنى يشمل بالإضافة إلى المكان الأشياء  
والنتوءات والأشكال، ففي «لسان العرب»: " وكل ناحية على  
حدة حيز، بتشديد الياء، وأصله من الواو، والحيز تخفيف  
الحيز، مثل هيئ وهيئ ( )".

وفي المعجم العربي «مختار الصحاح»: " الحيز بوزن  
الهن ما انضم إلى الدار من مرافقها، وكل ناحية حيز ( )"،  
والتعريف نفسه مضموناً ولفظاً نصادفه في معجم «العين»  
( ) .

وأما ورود كلمة «الحيز» في الكتب، فإن أكثرها  
يجوم حول معنى المجال، أو النطاق فعلى سبيل المثال، قد  
جاء لفظ الحيز على في معجم «الحدود الأنيقة» عند تعريف  
مفهوم «البيان»: " البيان إخراج الشيء من حيز الإشكال  
إلى حيز التحلي ( )"، وجاء في « المثل السائر » ل«ابن  
الأثير» هذه العبارة: " الألفاظ داخله في حيز الأصوات،  
فالذي يستلذه السمع منها، ويميل إليه هو الحسن. ( )"

ومهما يكن فالظاهر أن الأسماع استلذت لفظه  
«الفضاء» واستحسنتها "وقد آثر المشتغلون بدراسة عنصر

وإلا ما جدوى إطلاقها دون ضبط مفاهيمها ودون وضعها  
حيز الإجراءات التطبيقي.

فقد وجدنا «عبد الملك مرتاض» نفسه، يضع  
مصطلحين اثنين في مقابل المصطلح الفرنسي  
«spatialisation»، حيث وظف في مرة واحدة مصطلح  
«التحيز» ( ) في كتابه «في نظرية الرواية»، ووظف مصطلح  
«الحيز» في طبعة أخرى من نفس الكتاب، ووضح المفهوم  
الذي يحمله هذا المصطلح بعبارة واحدة وردت في الطبعتين  
هي: " إذا توسعنا في رؤيتنا إلى الحيز، وهي رؤية تبدو لنا  
مشروعة فإن كل حيز سيولد حيزاً آخر مثله، وأكبر منه وهو  
ما يمكن أن نطلق عليه «النشاط الحيزي»، أو الحيزة  
( ) " (spatialisation, spacialization)، في حين  
أنا وجدناه يضع تفرقة بين مصطلح «التحيز»، ومصطلح  
«الحيز»، كما سبق ورأينا ذلك في كتابه «التحليل السيميائي  
للخطاب الشعري ( )».

وكنا ذكرنا فيما سبق من هذا البحث بأن «عبد الملك  
مرتاض»، ينفرد بتوظيف مصطلح «الحيز»، غير أن هذا كلام  
لا يؤخذ به على إطلاقه هكذا، فقد يكون استعمال مصطلح  
«الحيز»، جارياً في بعض الأبحاث، ولكن على نطاق ضيق  
كما يبدو، فقد وجدنا في أثناء جمعنا لمادة هذا البحث، أن  
«عادل فريجات» وظف مصطلح «عبد الملك مرتاض» في  
كتابه «مرايا الرواية»، بالرغم من أنه يستعمل من حين لآخر  
مصطلحي «الفضاء»، و«المكان»، حيث استعمل مصطلح  
«الحيز» في كتابه المذكور في معرض دراسته لرواية «شموس

هي" بعث الحركة التأثيرية في هذا الحيز، ليفرز أحياناً جديدة،  
بناءً على لوحات حيزية خلفية تمثلها في النص المقروء ( )".

وبين لنا الأطوار التي ترد للحيز الخصب، حيث " ينتقل فيها  
من حالة المحايدة الفاعلة التأثير إلى حال فاعلة، مؤثرة مفرزة،  
مخضبة، حال تتخذ لها مظهر الحيز النشط في محيطها  
الدلالي، والحال الثالثة التي تنشأ من الحال الثانية، الناشئة هي  
أيضاً من الحال الأولى، هي التي نطلق عليها مصطلح «  
التحيز»، والمرحلة المجسدة لمرحلة أوج التفاعل الحيزي ( )".

وكان قد ذكر في مدخل الدراسة، عبارة أوجز وأوضح من هذه  
يقول فيها: " والتحيز، تبادل الأحياء فيما بينها المواقع  
والوظائف، داخل لوحة حيزية واحدة أو عدة لوحات من  
الحيز. ( )، أما «الحيز» فتكون بمنزلة جهاز لإنتاج  
الحيز... وإذا كان هذا الجهاز لا يبرح مفتقراً إلى بلورة وتنعيد،  
وإلى تأصيل وتفرع؛ حتى يستوي له المنهج الذي يتخذ  
الصورة النهائية ليتمكن الإفادة منه في تحليل الخطاب الأدبي؛  
فإن ذلك لا يحظر علينا أن نلج منذ الآن في مرحلة  
التطبيق ( )".

والظاهر أننا سنرى فيما سيأتي من أيام، احتياج الناقد الأدبي  
إلى صيغ التفعيل والتفاعل والفعلة وغيرها، يريد اشتقاقها من  
مصطلح «الفضاء» فلا يستطيع إلى ذلك سبيلاً، وعندها  
يمكن أن يجد مصطلح «الحيز»، ومشتقاته وأوزانه الأخرى  
مكانه بين المصطلحات الأدبية المعتبرة، بشرط أن تولد هذه  
المصطلحات، وتوضع لها المفاهيم التي تحملها وفق رؤية  
مضبوطة ودقيقة يلتزم بها، تتضافر معها الإجراءات التطبيقية،

وقد وظف مصطلح « المكان »، و صنفه " إلى أربعة أصناف هي:

1- المكان المجازي: وهو المكان الذي نجد في رواية الأحداث... إنه مكان سلمي، مستسلم، يخضع لأفعال الشخصيات.

2- المكان الهندسي: وهو المكان الذي تعرضه الرواية بدقة وحياد، من خلال أبعاده الخارجية.

3- المكان كتجربة معاشة داخل العمل الروائي، وهو قادر على إثارة ذكرى المكان عند المتلقي.

4- المكان المعادي: كالسجن والمنفى، والطبيعة الخالية من البشر ومكان الغربة. وهو مكان يدخل تحت السلطة الأبوية، بخلاف الأمكنة الثلاثة الأولى التي يراها أماكن أمومية (").

ومن النقاد الذين يوظفون مصطلح «المكان»، في مقابل المصطلحات الأخرى ك«الفضاء» و«الحيز»، نذكر على سبيل المثال الناقدة «سيزا القاسم»، في كتابها الشهير لدى الطلبة الباحثين «بناء الرواية»، حيث إنها رغم إدراكها أن " بعض النقاد الغربيين يحاولون التفرقة بين مستويات مختلفة من

المكان (")، إلا أنها تترجم المصطلح الفرنسي «SPACE»، ونظيره الإنجليزي «SPACE»، إلى العربية بكلمة «الفراغ» (،) دون أن تستعملها في بحثها المذكور، والترمت «سيزا القاسم» " في هذا البحث استخدام

الغجر»، للروائي «حيدر حيدر»، التي نورد منها هذه العبارة: "إذا كان العنوان قدم لنا عوناً في فهم الرواية، فإن «الحيز الروائي» أو بعضاً منه، وهو البرية هنا، قد أدى وظيفة أخرى من وظائف السرد، وساعد على رسم اللوحة المتناسقة في هذا العمل ( )".

وكما رأينا أن "الدكتور «مرتاض» يعتمد مصطلح الحيز بدل مصطلح الفضاء ويعطيه مظاهراً، مثلما أعطى باحثون آخرون للفضاء مظاهراً كذلك. وهي مظاهر متقاربة على ما يبدو (الحيز الجغرافي/ الحيز النصي/ الحيز الدلالي) ويقابلها على مستوى الفضاء (الفضاء الجغرافي/ الفضاء النصي/ الفضاء الدلالي). فيمكن أن تكون هذه الإشكالية مجرد اختلاف التسمية ( )".

والإشكالية هنا هي إشكالية وضع مصطلحين للدلالة على نفس المفهوم، إذن فما دام المصطلحان (الفضاء/الحيز) لهما مفهومان متقاربان، إن لم نقل متطابقان، فإن حسم السابق والرواج لأحدهما مرهون بالزمن وبالتبدل به من قبل الباحثين .

6- مصطلح المكان في مقابل مصطلح الفضاء:

ذكرنا بأن لمفهوم الفضاء مصطلحات عديدة، غير مصطلح «الفضاء» غير أن هناك من آثر استخدام مصطلح «المكان» عوض «الفضاء»، وقد "كان غالب هلسا هو أول الدارسين للمكان، وذلك في كتابه «المكان في الرواية العربية» ( )،

نفسية، تميز العلاقة التأثيرية التي تقوم بين الإنسان والمكان، فيغدو المكان محمولاً نفسياً خبرياً في ذات الكائن ( )".

هذا وقد عثرنا على مجموعة من المقالات الأدبية، تستعمل مصطلح المكان بدلاً من مصطلح «الفضاء»، أو أي مصطلح آخر بديلاً عنه، ونكتفي هنا بذكر عناوين هذه المقالات، مع الإحالة إلى المجالات المنشورة فيها:

-المكان دلالاته ودوره السردي، قراءة في رواية إبراهيم الكوني البئر نموذجاً، تيسير عبد الجبار الألويسي، مجلة علوم إنسانية، عدد 06، فبراير 2004.

-عنصر المكان في تكوين البناء الروائي، محمد المنصور، صحيفة 26 سبتمبر، عدد 1208، ص 09.

-الرواية والمكان، مبارك ربيع، صحيفة 26 سبتمبر، عدد 1110، ص 07.

-السردي القصصي وجماليية المكان، أحمد طالب، مجلة الموقف الأدبي عدد 403، تشرين الثاني 2004 .

1-5 مصطلح المكان للدلالة على أحد عناصر الفضاء :

نذكر هنا أن " أغلب النقاد الذين تحدثوا عن الفضاء، كانوا يراعون شرطاً أساسياً، وهو وجود مجال مكاني معين يمكن أن يُدرك أو يتخيّل، كما يمكن أن يحتوي على أشخاص أو حتى على أحرف طباعية " ( )، ولكننا هنا نريد أن نتناول مصطلح «المكان» وعلاقته من حيث المفهوم بمصطلح «الفضاء،

كلمة «المكان» اتساقاً مع لغة النقد العربي ... والمكان يمثل الخلفية التي تقع فيها أحداث الرواية ( )".

ونذكر كذلك «حبيب مونسي» الذي التزم أيضاً بتوظيف مصطلح «المكان» دون غيره من المصطلحات في دراسته الموسومة ب«فلسفة المكان في الشعر العربي». وتعريفه للمكان لا يخرج بحال - كما سنرى فيما سيأتي من مباحث - عن الحد الموضوع للفضاء الروائي، بالمفهوم الذي يحمله لدى معظم النقاد المحدثين، حيث يقول: "كل ملامسة للمكان إنما هي ملامسة لشبكة العلاقات التي تربط الأشخاص بالمجال المعيشي، ارتباط وجود، وانتماء وهوية، فالسؤال المكانية لا تقف عند حدود التأطير وحسب، وإنما تتعداها إلى مجالات أوسع تضطلع بها الدراسات الإنسانية في مختلف اهتماماتها وحقولها ( )".

كما نجد مصطلح «المكان» يهيمن على الدراسة التي قدمها «سليمان حسين» في كتابه «مضمرة النص»، حين يتطرق إلى دلالات المكان عند الروائي «جبرا إبراهيم جبرا»، ومفهومه للمكان، يقترب كثيراً من المفاهيم التي يحملها مصطلح «الفضاء»، - كما سنرى - ، ومفهوم « عبد الملك مرتاض » للحيز - كما رأينا سابقاً. -

فالمكان عند « سليمان حسين » " يستعان به لخلق إيهام بالواقعية، والإعانة على تصور العالم الروائي، ويدخل في الحسبان أيضاً مكونات المكان الأخرى كالأثاث والأشياء، والمأكل والمشرب، ومقتنيات البيئة والطبيعة، وللمكان دلالة

«space»، في حين تستخدم الكلمة «الموقع» كمقابل للفرنسية «lieu»، والإنجليزية «location»، وتذكر بأن النقاد الكلاسيكيين "اكتفوا في اللغات الثلاث باستخدام كلمة «مكان» place/lieu/للدلالة على كل أنواع المكان، حيث لم يكن معنى «الفراغ»، بمفهومه الحديث قد نشأ بعد".

ومن ثم فقد "ضاق الفرنسيون بمحدودية كلمة «lieu» الموقع»، فبدأوا في استخدام كلمة «espace» فراغ»،... ولم يرض نقاد الإنجليزية عن اتساع كلمة «place/space» مكان/فراغ»، وأضافوا استخدام كلمة «بقعة» location/للتعبير عن المكان المحدد لوقع الحدث".

والظاهر أن «سيزا القاسم»، تترجم كلمة «space» الإنجليزية، إلى كلمة «مكان» انطلاقاً من أن هذه الكلمة «SPACE» هي من مرادفات الكلمة «place» التي تقابل كلمة «مكان» في اللغة العربية.

هذا وقد استعمل «عبد الملك مرتاض» مصطلح «المكان» في دراسته السيميائية لرواية زقاق المدق، عندما احتاج إلى التفرقة بين المكان الجغرافي الحقيقي أو الواقعي، وبين إطلاقات أخرى هي - كما قال - أشمل وأوسع).

والمكان عنده بحسب ما جاء في هذه الدراسة هو "كل حيز ما، عنى حيزاً جغرافياً حقيقياً، من حيث يطلق الحيز في حد ذاته على كل فضاء خرافي أو أسطوري، أو كل ما ينبئ عن المكان المحسوس، كالخطوط والأبعاد والأحجام والأنتقال

حيث أن بعض النقاد والباحثين في مجال النقد الأدبي يستعملون مصطلح «المكان» مقابلاً معادلاً لمصطلح «الفضاء»، كما رأينا في المبحث السابق، وبعضهم الآخر يستعملونهما معاً، ويميزون بينهما كمفهومين مختلفين، أو يميزون بينهما بحسب ما يرونه من لزوم التفرقة بينهما في درجة التعميم والتخصيص، باعتبار أن «المكان» جزء من الفضاء، وأحد مكوناته أو أحد العناصر التي تدخل في تشكيله، وهذا الذي سنعرض له في هذا المبحث، فيما يأتي من سطور.

«المكان الروائي»، في مفهوم بعض النقاد، هو جزء محتوي في «الفضاء»، ومن هؤلاء النقاد، نذكر الباحث «سمر روجي الفيصل»، الذي يقول: "المكان الروائي حين يطلق من أي قيد يدل على المكان داخل الرواية سواء أكان مكاناً واحداً، أو أمكنة عدة، ولكننا حين نضع مصطلح المكان في مقابل الفضاء، بغية التمييز بين مفهومين، فإننا نقصد بالمكان الروائي المفرد ليس غير ونقصد بالفضاء الروائي أمكنة الرواية جميعها".

أما الناقدة «سيزا القاسم»، فبالرغم من أنها آثرت الالتزام باستخدام مصطلح «المكان» في جميع الحالات - كما ذكرنا ذلك في موضع سابق-، إلا أنها تدرك جيداً، وجود الحاجة إلى التفرقة بين "مستويين مختلفين للبعد المكاني، أحدهما يتركز فيه مكان وقوع الحدث، والآخر أكثر اتساعاً، ويعبر عن الفراغ المتسع الذي تتكشف فيه أحداث الرواية".

مع العلم أنها عندما تترجم، تضع الثنائية «المكان/الفراغ»، كمقابل للكلمة الفرنسية «espace» ونظيرتها الإنجليزية

وربما جاءت تفرقة «عبد الملك مرتاض» بين «المكان» و«الحيز» في مرحلة تطبيقية سبقت المرحلة النظرية، التي تتسم بالتروي والنظر الدقيق في المصطلحات والإطلاقات النقدية المختلفة، والتمييز بينها، إذ نجد في كتابه الموسوم بـ «في نظرية الرواية» يقول: "إن الحيز الأدبي - الروائي - ليس الجغرافيا ولو أراد أن يكونها، إنه مظهر من مظاهر الجغرافيا ولكنه ليس بها)"

وهو هنا لا يحاول أن يسقط مصطلح «المكان الجغرافي» من اعتباراته بحسب فهمنا من قوله: "ولما كان الحيز الروائي يعكس مثول الإنسان في صورة خيالية «الشخصية»، فإن هذه الشخصية ما كان لها لتضطرب إلا في حيز جغرافي، أو في مكان." ( )، ولكنه يحاول أن يزيل المغالطة التي قد تستدعيها إلى تصورنا «بإاء» النسبة في كلمة «الجغرافي»، فتخلط بين المكان الأدبي المنسوب إلى الصنعة الأدبية وبين المكان المنسوب إلى «الجغرافيا» التي تعني "العلم الذي موضوعه وصف وشرح الحيز الراهن، والطبيعي، والإنساني لوجه الأرض." ( )

والظاهر أن «عبد الملك مرتاض»، يستعمل مصطلح «المكان» أو «الحيز الجغرافي»، إذا كان وارداً في الرواية وروداً سلبياً، مجرد خلفية تزيينية، لا نلمس له تأثير على مسار العمل السردي، ودليلنا على هذا ما ورد في دراسته لأحياز بعض القصص الجزائرية، يقول مثلاً: "أما لدى «المنور»، فالحيز في الغالب جغرافي، ولا يكاد يشد إلا في قصة «عودة الأم»، حيث نلغي الحيز رمزاً للوطن، ولكن

والأشياء المجسمة مثل الأشجار والأنهار، وما يعتور هذه المظاهر الحيزية من الحركة أو التغير ( )".

وما تنهى إلى أفهامنا من هذه العبارة، ومن التحليل الشيق الذي أجراه على رواية «زقاق المدق» للأديب «نجيب محفوظ»، أنه يطلق «المكان» على «الأحياز» التي تتكون منها الرواية، نظراً إلى أنها تستند إلى أماكن لها مسمياتها في الحقيقة التي اتكأ عليها «محفوظ» في بناء أحداث روايته، مثل غيرها من الروايات التي كتبها انطلاقاً من الواقع القاهري، كما هو معروف عنه، في مذهبه الواقعي الذي ينهجه في إبداعاته، أما «الحيز»، فنفهم من ذلك أنه يطلقه على الأمكنة المستوحاة من خيال المؤلف، والتي لا وجود لمسمياتها أو لمثيلاتها على أرض الواقع.

والظاهر أن هذه كانت مرحلة أولية من مراحل تنظير «عبد الملك مرتاض» لهذا المفهوم السيميائي، حيث فاته بأن أي مكان روائي مهما بالغ الكاتب في وصفه محاكاةً للواقع، فإنه سيبقى دوماً مكاناً ذهنيًا، أي أن "المكان الروائي هو المكان اللفظي المتخيل، المكان الذي صنعته اللغة انصياعاً لأغراض التخيل الروائي وحاجاته." ( )

وعلى أية حال فمن المنفق عليه، أن المكان في الرواية أياً كان شكله ليس هو المكان في الواقع الخارجي، ولو أشارت إليه الرواية أو عنته، أو سمته بالاسم، فالنص الروائي يخلق عن طريق الكلمات مكاناً خيالياً له مقوماته الخاصة وأبعاده المتميزة.

صورة هذا الحيز خلت في رأينا من المسحة الشعرية والفلسفة معاً. ( )

فهو يصف «الحيز» بأنه «جغرافي»، أو يوظف بدلاً من ذلك مصطلح «المكان»، إذا كان حسب قراءته له، مجرد ديكور أو خلفية تزيينية، لا علاقة له بمشاعر الشخصيات وأمزجتها، ولا شأن له في التأثير على مسار الأحداث في العمل السردي، لأنه "إذا كان للمكان حدود تحده، ونهاية ينتهي إليها، فإن الحيز لا حدود له ولا انتهاء، فهو المجال الفسيح الذي يتبارى في مضطربه كتاب الرواية، فيتعاملون معه بناء على ما يودون من هذا التعامل، حيث يغتدي الحيز من بين مشكلات البناء الروائي كالزمان والشخصية واللغة ( )"

أما عند «سمر روجي الفيصل»، فالمكان الروائي، يعتبر عنصراً ضمن مجموعة من عناصر أخرى تتظافر في تشكيل «الفضاء الروائي» لأن "دلالة الفضاء لا تقتصر على مجموع الأمكنة في الرواية، بل تتسع لتشمل الإيقاع المنظم للحوادث التي تقع في هذه الأمكنة، ولوجهات نظر الشخصيات فيها، ومن ثم يبدو مصطلح الفضاء أكثر شمولاً واتساعاً من مصطلح المكان ( )".

ونفهم من هذا السياق، أن «المكان الروائي» عنده، هو مطلق المكان، أو مفرد المكان، الذي يدخل ضمن

مكونات الفضاء، ثم إن هذا "«الفضاء الروائي» لا يتشكل إذا لم تتضامن وجهات النظر، وشبكات العلاقات والرؤى مع

بعضها بعضاً، تبعاً لارتباط هذا الفضاء بالحوادث

والشخصيات ( )".

أي أنه لا يمكن الحديث عن «الفضاء»، إذا لم تكن له فاعلية في العمل الروائي، تحكم مسار الرواية، وتحسم وجهة الدلالة فيها.

وتحديد مصطلح «الفضاء الروائي»، بهذا الشكل، ليشمل كل عناصر السرد التي ذكرت، يجعله مفهوماً فضفاضاً جراحاً، فهو بهذا يكون العمل الروائي بخلافه، أو على الأقل الإطار أو الإيقاع التنظيمي الذي تتناغم معه سيرورة العمل السردي، الأمر الذي يجعله لا يستقر ليخضع لإجراء معين، يمكن من محاولة وضع اليد عليه، الأمر الذي يصعب من مقارنته على الأقل.

ولو نظرنا في كتاب «بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي» للناقد المغربي «حميد حميداني»، لوجدناه يقدم رؤية واضحة المعالم والحدود فيما يخص التفرقة بين مصطلحي «الفضاء»، و«المكان»، من حيث عموم الأول والخصوصية التي يمتاز بها الثاني. نوجزها في النقاط التالية:

- "مجموع الأمكنة هو ما يبدو منطقياً أن نطلق عليه اسم «فضاء الرواية».

-الفضاء أشمل وأوسع من المكان، والمكان بهذا المعنى هو مكون الفضاء.

-إن الفضاء وفق هذا التحديد شمولي، إنه يشير إلى المسرح الروائي بكامله والمكان يمكن أن يكون فقط متعلقاً بمجال جزئي من مجالات الفضاء.

هنا بأنه " لا يجوز لأي عمل سردي أن يضطرب بمعزل عن «الحيز» (الفضاء)، الذي هو من هذا الاعتبار عنصر مركزي في تشكيل العمل الروائي من حيث ربطه بالشخصية واللغة والحدث، ربطاً عضويًا) ".

و«الفضاء الروائي» بمفهومه البسيط أو الأولي، يميلنا إلى تصور ذهني عن المكان الذي تجري فيه الأحداث، وتضطرب فيه الشخصيات، فتصوير الأماكن بالكلمات في قصة ما، يختلف كل الاختلاف عن تصويرها تصويراً فوتوغرافياً، مهما بلغت تلك القصة في وصف الواقع والتحلي بالواقعية، لأن "مجرد خبرة الفنان بالمكان لا تجعله قادراً على إحيائه في كلمات، كما أن مجرد لصق لافتة بأن هذا المكان هو القاهرة، لا يكفي لبث الحياة في هذه التسمية .( )".

وقد عبر الفيلسوف الفرنسي «غاستون باشلار Gaston» «Bachelard» عن هذا المعنى بعبارة لطيفة يقول فيها: "المكان الممسوك بواسطة الخيال، لن يظل مكاناً محايداً خاضعاً لقياسات وتقييم مساح الأراضي .( )"

وما نفهمه من هذه العبارة هنا أن المكان أو صورته إذا دخلت منطقة الخيال، لن تبقى صورة هندسية صماء، بل تضحى صورة ممتزجة بالأحاسيس والمشاعر الذاتية التي تجعلها تنفلت وتتأبى على القياس الذي يعتمد على إحدى الحواس الخمس.

ففي اللغة الأمر منوط بالتصور الذهني أو الصورة الذهنية التي تحدثها الكلمات لدى المتلقي أو القارئ هذا التصور يتميز بالذاتية، كما هو معروف الأمر الذي يجعله يختلف من شخص لآخر، لذلك يسميه بعض النقاد «الفضاء المتخيّل»

- يلتقي وصف المكان مع الانقطاع الزمني، في حين أن الفضاء يفترض دائماً تصور الحركة داخله، أي يفترض الاستمرارية الزمنية.

- لا يمكن تصور الفضاء الروائي دون تصور الحركة التي تجري فيه.

- وهذا يعني أن الفضاء مكون من الأحداث، ولكنه يؤطرها ( ) .

#### 7- مفهوم الفضاء الروائي وتظاهراته:

الفضاء الروائي هو أحد مكونات النص السردي، وعنصر من عناصره وهو يقوم "في داخل أي نسيج نصي إبداعي بوظيفة لا تقل أهمية عن الوظائف التي تؤديها العناصر النصية الأخرى، وغالباً ما يستعمل للدلالة على المجال الطبيعي الذي تجري فيه وقائع القصة، وتنحرك فيه شخصياتها.( )"

والرواية فن يعنى بتقديم حياة الإنسان في إطار فني، بغض النظر عن أطوار هذه الحياة، أو أشكال تقديمها في قالب فني، يستوحي أدواته من واقع الإنسان، الذي تدرج حياته كما هو معلوم بداهة في إطار الزمان والمكان .

وكما لا يسوغ بداهة لأي عمل روائي أن تنسج خيوطه في معزل عن الإنسان بأحاسيسه ومشاعره، وبمعزل عن الزمان سواء أكان عاماً أو خاصاً، فإن المقام يفرض علينا أن نقول



التي تدفعهم قراءتهم المتميزة بشيء من الحصافة والتمحيص،  
والغوص في عمق النصوص، والتفتن لتقنياتها، بدافع من  
الممارسة النقدية التي تترسوا عليها بقصد أو من دون قصد،  
ولا يخفى على أي حصيف أن الممارسات الإبداعية والقرائية  
قد أسست لها منذ زمن نوعاً من الملكة أو الكفاية الفنية،  
جعلت التنبه إلى هذه التفرقة عملية عقلية مجردة، حيث أصبح  
التداخل بين المتخيل والواقعي أمراً لا يستعري الانتباه ولا يشير  
كثيراً من الفضول، ففي العمل الروائي المنجز يكون المتخيل  
هو واقع النص، أي أن المتخيل يتحول من كونه متخيلاً إلى  
واقع افتراضي في الرواية، لذلك فمن الفطنة والكياسة الفنية أن  
نعي في أذهاننا، بوجوب وضع تفرقة بين الفضاء الواقعي  
المحسوس وبين «الفضاء الروائي»، الذي تصنعه اللغة في  
الرواية، هذه اللغة الإبداعية والمبدعة، هي التي تجذب القارئ  
أيضاً كي يتخلى طواعية عن واقعه الخاص، ويندمج بشغف في  
واقع النص التخيلي الذي تصنعه له الكلمات والجمل  
والعبارات.

إن التفرقة المراد إدراكها هنا بين الفضاء المحسوس وبين الفضاء  
الروائي تشبه التفرقة التي أصبحنا ندركها الآن، ومن غير  
إشكال أو عناء يذكر، بين الشخصية الحقيقية والشخصية  
الروائية، التي توصف من قبل بعض النقاد بأنها مجرد شخصية  
ورقية من خلق مبدعها .

الهوامش والإحالات:

الذي هو مجموع العناصر المكانية الواردة، بما هي أشكال  
طوبوغرافية وأعلام جغرافية، هي بمثابة نسق يعيد تشكيل  
الواقع، دون أن يكون نسخة مطابقة له.

إن الفضاء يكشف، إذن، عن مقدار الاهتمام الذي يولييه  
الروائي للعالم ونوعية ذلك الاهتمام، فيمكن للنظر أن يتوقف  
عند الشيء الموصوف أو يتعداه فالوصف يترجم العلاقة  
الجوهريّة، القائمة في صلب الرواية بين الإنسان، مؤلفاً كان أو  
شخصية، والعالم المحيط، فهو يفر منه أو يعوضه بآخر، أو  
يغوص فيه ليسبره، ويفهمه أو يتعرف، من خلاله، إلى نفسه ( )

أي أن ماهية الفضاء وتحديده مرتبط بشكل

أساسي بطريقة إدراكنا للأمر و ما يدور في أذهاننا وفق ما  
اكتسبناه من خبرات في الحياة، والحقيقة هي "إن قراءة الرواية  
رحلة في عالم مختلف عن العالم الذي يعيش فيه القارئ، فمن  
اللحظة الأولى التي يفتح فيها القارئ الكتاب، ينتقل إلى عالم  
خيالي من صنع كلمات الروائي، ويقع هذا العالم في مناطق  
مغايرة للواقع المكاني المباشر الذي يتواجد فيه القارئ( )".

حيث إن اللغة البانية في الخطاب الأدبي، لا تستمد  
سلطتها من سطوتها التقليدية أو من نفوذها الوظيفي  
وحسب، وإنما أيضاً بحضورها الذي يقتحم القارئ، ويملاً عليه  
جوارحه وطاقاته الفكرية والفنية والنفسية، ويلقي به في دنيا  
غير الدنيا وفي واقع غير الواقع.

والتفرقة ما بين الواقع المعطى، والواقع المتخيل لا

يتنبه لها إلا الباحثون والنقاد المتخصصون، أو بعض الدارسين،

jamaliat almakan fi alnaqd al'adbayi alearabii almueasir , eabd allah 'abu hif , majalatan jamieatan tishrin lildirasat walbuhwith aleilmiat , silsilat aladab waleulum al'iinsaniat almujalid 27 , aleadad 1 , 2005

jamaliat almakan fi alnaqd al'adbayi alearabii almueasir , alduktur eabd allh 'abu hif , majalatan jamieatan tishrin lildirasat walbuhwith aleilmiat , silsilat aladab waleulum al'iinsaniat , almujalid 27 , aleadad 1 , 2005.

ynzur: alfada' fi riwayat ghdaan yawm jadid , shribit 'ahmad shrybt , majalat althaqafat , eadad 115 , 1997 , sa142-143

ja , y) dirasatan siamiyiyat tafkikiat , eabd almalik mirtad , diwan almatbueat aljamieiat , s 100.

tatawurat faniyat fi alqisat aljazayiriat , shribit 'ahmad shrybt , manshurat aithad alkuttab alearab , dimashq , 1998 , s 38.

alfada' fi riwayat ghdaan yawm jadid , shribit 'ahmad shrybt , majalat althaqafat , eadad 115 , 1997 , s 144.

ynzr: almakan walzaman fi alriwayat aljazayiriat , eabd alhamid burayu , majalat almujahid , maris 1392 h / 1987 m , alhalqat al'uwlaa , s 64.

alsard alqasasi wajamaliat almakan , 'ahmad talab , majalat almawqif al'adbii , eadad 403 , alsanat alrrabieat , tishrin alththani 2004 m / ramadan 1425 h.

ynzr: shaeriat alkhitab alsardii , muhamad ezam , s 67.

jamaliat alhayz fi almuealaqat , eabd almalik mirtad , dirasat min manshurat aithad alkuttab alearab , 1998.

fi nazariat alriwayat bahth fi taqniat alsard , eabd almalik mirtad , dar algharb lilnashr waltawzie , s 192.

almarjie nafsih , s 194.

almarjie nafsih , s 192.

yanzuru: almarjie nafsih , s 193.

tahlil alkhitab alsardii muealajat tafkikat sawiat markabat liriwayat zuqaq almidaqi , eabd almalik mirtad , s 245.

ynzur: hayyat alnas alsurdii min manzur alnaqd al'adbii , hamid lihamidani , s 55-s 73.

fi nazariat alriwayat bahth fi taqniat alsard , eabd almalik mirtad , dar algharb liltibaeat waltawzie , s 185.

lisan alearab , muhamad bin mukrim bin manzur al'iifriqii (630-711) , j 5 s 342.

mukhtar alsahah , muhamad bin 'abi bikr alrrazi (t 727) , thqyq: mahmud khatir , maktabat lubnan nashirun , bayrut , t jadedat , 1415/1995 , s 68.

ynzur: mukhtar alsahah , muhamad bin 'abi bikr alrrazi (727) , thqyq: mahmud khatir , maktabat lubnan nashirun , bayrut , 1995 , j 1 , s 212

ynzur: kitab aleayn , alkhalil bin 'ahmad alfarahidii (100-175) , thqyq: mahdi almakhzumi / 'iibrahim alsamrayyi , dar wamaktabat alhilal , j 7 s 63.

almutawakil alliythiu (t 85 h / 704 m) , eash fi easr mueawiat wayazid , qal alamadi: hu sahib albayt almshhwr: la tunh ean khalaq watati mithlah.

tabaqat fuhul alshueara' , muhamad bin salam aljambii (139-231) , thqyq: mahmud muhamad shakir , dar almadani , jidat , j 2 s 685.

almudahish , 'abi firaj jamal aldiyn bin eali aljawzi (508

h) , thqyq: marwan qabani , t 2 , dar alkutub

aleilmiat , bayrut , 1985 , s 171.

quraa aldayf , eabd allah bin qays , thqyq: eabd alh bin hamd almnsr , t 1 , manshurat 'adwa' alsulf , alriyad , 1997 , j 4 , s 364.

sabab al'aeshaa fi sinaeat al'insha , 'ahmad bin eali alqilqshandii (821) , thqyq: yusuf eali tawil , t 1 , dar alfikr , dimashq , j 3 , s 29.

sabab al'aeshaa fi sinaeat al'insha , 'ahmad bin eali alqilqshndy , j 6 s 473.

binyat alfada' fi riwayat ghdaan yawm jadid , shribit 'ahmad shrybt , majalat althaqafat , aledd: 115 , 1997 , s 144.

Le Robert - Paul Robert - societe du nouveau litre - Paris XIe - nouveau tirage - 1983.

binyat alnas alsurdii min manzur alnaqd alriwayiyi , hamid lihamidaniin , t 3 , almarkaz althaqafiu alearabii , aldaar albayda' , 2000 , s 53

Pour lire le roman 'J.P. Goldstein 'Bruxelles 'Duculot '1983 ' p.101.

La litterature sur l'espace est partulierement pauvre.

Le Lieu et le sens: l'espace parisien dans Ferragus de Balzac >>>in Le Discours du roman 'Henri Mitterand Paris 'Puf, 1980. s 50.

L'organisation de l'espace dans le roman >> 'Etudes litteraires ' Roland Bourneuf 'Quebec 'Les Presses de l'Universite Laval 'avril 1970 'p.77

mafhum al'adab , tazfitan tuduruf , tr: mundhir eiashiun , t 1 , alnnadi al'adabi althaqafii , jidat , 1990 , s 15.

shaeriat alkhitab alsardii , mhmmdd ezzam , dirasatan min manshurat aithad alkuttab alearab , dimashq , 2005 , s 67.

almarjie nafsih , s 125.

yanzuru: altahlil alsiyamiyiyu lilkhatab alshaerii , eabd almalik mirtad , s 30-31-86.

maraya alriwwayat dirasatan tatbiqiatan fi alfin alrawayiyi , eadil farijat , manshurat aithad alkuttab alearab , dimashq , 2000 , s 47.

nazariat alriwwayat fi alnaqd aljazayir alhadith , risalatan dukturah mueadatan min qibla: bashir mahmudiin , jamieat abn khaldun - tyart- , s 286.

shaeriat alkhatab alsardii , muhamad ezam , s 67.

ynzr: almarjie nafsih , s 68.

bina' alriwwayat dirasatan mqrant lithulathiat najib mahfuz , sayazaan alqasim , almaktabat alwataniat aljazayiriya- alhayyat almisriat lilkutab , 1984 , s 75.

ynzr: almarjie nafsih , s 75.

ynzur: kitab aleayn , alkhaliil bin 'ahmad alfarahidi (100-175h) , ja3- s 275.

alhudud al'aniqat waltaerifat aldaqiqat , zakariaaan bin muhamad al'ansari (824-926) , thqyq: mazin almubarak , dar alfikr almueasir , bayrut , 1411 h , t 1 , s 69.

almathal alssayir fi 'adab alkatib walshshaeir , dia' aldiyn abn al'athir (637 h) , tahqiq: muhamad muhi aldiyn eabd alhamid , almaktabat aleasriat , bayrut , 1995 , j 1 s 81.

'ahamiyat almakan fi alnasi alrawayiyi , asia albaweli , majalat nazwaa , eadad 22 , 'abril sanat 2000.

altahlil alsiyamiyiyu lilkhatab alshaerii , eabd almalik mirtad , manshurat aithad alkuttab alearab , dimashq , 2005 , s 86.

almarjie nafsih , s 86.

almarjie nafsih , s 87.

almarjie nafsih , s 18.

altahlil alsiyamiyiyu lilkhatab alshaerii , eabd almalik mirtad , s30-31..

yanzur: fi nazariat alriwwayat bahth fi taqniat alsard , eabd almalik mirtad , dar algharb llnash waltawzie , s 191.